دورات رفع كفاءة طالب العلم ليؤدي دوره في الإصلاح

الاستقامة وسلامة القلب وزكاة النفس حجر الأساس في بناء طالب العلم

✍ حسين عبد الرازق

المحاضرة الثالثة لطلاب معهد آفاق للبناء العقدي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دخلتُ مكتبةً قد أعدّها شيخٌ كريم لطلاب العلم فوجدتُ شابّا–هو طالبُ علمٍ جديدٌ يظهرُ عليه حُسنُ الفهم والهِمةُ والنشاطُ والاستعدادُ للبَذْل **فقلتُ له**: أخي الكريم؛ ليكُن أخصَّ ما تسعى له في طريقك هذا: **أن تُصلح قلبك، وأن تُزكي نفسك وأن تسارعِ في الخيرات والعمل الصالح = أكثرَ من حرصك على المعرفة المجرّدة وجمع المعلومات، وليكن ذلك ميزانك الذي تزن به نفسك في طريق التماس العلم وطلب المعرفة، فقد سبقكَ إلى هذه المكتبةِ وهذا الطريق أقوامٌ كانوا على: همّةٍ وعزمٍ وذكاء وبَذْلٍ وجَلَدٍ، وكان يجلسون على الكتابِ أكثرَ من ثلثي اليوم، وحصّلوا قدرا كبيرا من المعرفة، وكان لديهم عدد من المهارات والملكات وكانوا أصحاب لسان ومنطق وبيان وحُجة = لكنهم كانوا يرونَ أمور تزكيةِ النفس والاستقامة والعبادات والعمل الصالح أمرا ثانويّا، بل دروشةً وإضاعةً للوقت = هُمُ الآن لا يُصلّون الفرائض ولا الجُمُعة، ويفعلون الموبقات، هُم الآن فَجَرةٌ بمعنى الكلمة!**

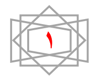
وقد كان الناسُ يُؤمِّلُون فيهم (ابنَ تيميةٍ جديد) !!! لما يرونه منهم من ذكاء وكثرة معلوماتٍ وهِمّة وطُولَ القراءة وبلاغةً وحُجةً وبيان، حسبوا (ابنَ تيمية) يُصنَعُ بمجرّد تلك الصور الظاهرة.

بل أعرفُ مَن كان من طلبة العلم لا ينقصه ذكاء ولا همّة، ويقضي عشر ساعات على الكتاب يوميا –على الأقل–، ويحضر لكبار المشايخ، وهو في صحبة أفاضل، وعنده مكتبة كبيرة= هو الآن يتقلّب في الفتن، لم يغب عني (وقت طلبه للعلم) أنّه قريبٌ جدا من الفتنة، وكنت أعلمُ من أين يُؤتى، وكم حذّرته ودعوتُ له، ولا زلت.

والخصلة التي أظنّه أُتِي منها أنه: لم يكن يعتني بتزكية النفس، ولا يجاهد نفسه على الطاعة (حتى في مواسم الخير كرمضانَ وعشرِ ذي الحجةِ وغيرها)، لم يكن يفكّر سوى في المعلومة الجديدة لا سيّما إن كانت غريبة أو غير مألوفة!!

كلمّا كان يزيدُ معرفة وعلما = **كان يزداد سخرية وانتقاصا من:**

- ✓ واعظٍ بسيط يلقي كلمةً بعد الصلاة يعظ الناس.
- ✓ أو خطيبِ جمعةٍ يلحنُ في الكلام.
- ✓ أو إمام يُذكّر الناس بحديث ضعيف.



والفرقُ معلوم بين بيان الغلط والنصح، وبين السخرية.

لم أر شيئا حسنا ظاهرا ازداد عنده بعد علم، **ولم أر** خُلقا سيئا غاب عنه بعد علم.

ظلّ ينظر إلى المواعظ على أنها: تصوُّف ودرْوشة، **وإلى أبواب العبادة والنوافل**: على أنها ليس أَولى ما يُشتَغلُ به ولا أن يُبذل له ولا يُتفَقَّدُ ويُحاسَبُ عليه، **ولو لامَه أحدٌ على تقصيره فيها**: اتّهمه بالدّروشة والعبَط.

حتى سقط مغشيّا عليه في بحر شهواتٍ لا ساحل له، وليس معه ما يُقاوم به، ولم ينفعه في محنته تلك: كميّةُ المعلوماتِ المجردة التي كان يحرص على جمعها!

لا أقطع بأني مصيب في تحليل تلك الظاهرة، لكنها تكررت أمامي كثيرا والنتيجة واحدة = مفتون في دينه.

- **هذا الطريق** (**طلبَ العلم**):

إن لم يصحبه تصور لمقاصد الطلب ومجاهدةٌ في تزكية النفس، وإصلاحُ القلب ومسارعةٌ في الخيرات واغتنامٌ لمواسم الخير، وإتْباعُ السيئةِ بالحسنةَ، وتعويضُ ما يفوت من خير = كان ضرُّه أكثرَ من نفعه بكثير.

والمعلوماتُ والمعارفُ إذا لم تجد قلبا سليما وعقلا حكيما= صارتْ سيفا تقتلُ صاحبها وربما تعدّى ضررُها ليقتل من حوله ممن يؤثّر فيهم ويقتدون به، وقد قال الله تعالى: ﴿والبلدُ الطيب يخرجُ نباتُه بإذن ربِّه۝ والذى خبُث لا يخرج إلا نكدا﴾.

وقال الشعبي: (إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خصلتان: **العقل**، و**النسك**؛ **فإن كان عاقلا ولم يكن ناسكا قال**: هذا أمر لا يناله إلا النُّسَّاك فلن أطلبه، **وإن كان ناسكا ولم يكن عاقلا قال**: هذا أمر لا يناله إلا العُقَلاء، فلن أطلبه، فلقد رهبت أن يكون يطلُبه اليوم من ليس فيه واحدة منهما، لا عقل ولا نسك)).

وفي مثل ذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله: ((من تَعلَّمَ القرآنَ عظمتْ قيمتُه، ومن تكلَّمَ في الفقه نما قدرُه، ومن كَتبَ الحديث قويتْ حجتُه، ومن نظر في اللغةِ رق طبعُه، ومن نظرَ في الحسابِ جزلَ رأيُه، ومن لم يصن نفسه، لم ينفعه علمه).

ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه...

بهذه الكلمات أفتتحُ مستعينا بالله تعالى محاضرتي مع طلاب الجامعة الإسلامية بولاية منيسوتا – أسأل الله لي ولهم الهداية والسداد–.

موضوع مُحاضراتي معكم أيها الشباب عن: حاجةِ طالب العلم إلى الاستقامة وتزكية النفس وسلامة القلب والعمل الصالح.

أقولُ: وإنّ طالبَ علم يحرصُ على استماع محاضراتٍ هذا موضوعُها لهو طالبٌ عاقلٌ مُوفّق يُبصر طريقه، وهو حقيقٌ إن شاء اللهُ بأن يزيدَه اللهُ علما وهدى وإيمانا.

العنوان العام للمحاضرات:

- ((الاستقامةُ وتزكية النفس وسلامةُ القلب حجرُ في بناء طالب العلم، وأعظمُ ثمرةٍ للطلبِ وأقوى برهانٍ على الانتفاع بالعلم)).

موضوعها:

- التذكيرُ بمقاصدِ الطلب التي تجعله عبادةً.
- وحسنِ التلقي والانتفاعِ بالمعرفة،
- وتصورُ معنى الاستقامةِ وتزكيةِ النفس.
- وسُبلِها، والسعيُ لها والمواظبةُ غليها.
- والحكمةُ في العمل بها وتعاهدُ النفسِ فيها ووضعُ برنامج عملي تطبيقي مقترح.

أهدافها:

١) تبصير طالب العلم بمقاصد الطلب.

٢) تصور معنى الاستقامة وتزكية النفس، والعمل الصالح وشعب الإيمان.

٣) حث الطالب على مجاهدة نفسه في سلامة القلب وحسن الخلق والعمل الصالح.

٤) وضع خطة عملية تجمع بين التنوع في العمل الصالح وفقه القيام به.

من خلال محاضراتٍ هذه عناصرها:

١) طالبُ العلم خُلِق ليعبد الله.

٢) طلبُ العلم من جملة الأعمال الصالحة وأشرفها.

٣) مقاصد التماس العلم.

٤) الاستقامة مكون رئيس عند أئمة العلم.

٥) التحذير من انحرافاتٍ تسرّبت إلى طلاب العلم (الأسباب وسبل الوقاية والعلاج).

٦) وقفات مع قول الله تعالى ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

٧) أثر معرفة طالب العلم بمقاصد الطلب.

٨) استحضار معاني العبادة في الطلب.

٩) العلم (بين الطلب–وحسن الأخذ وحسن الانتفاع).

١٠) من أين تُعرف الاستقامة وشُعب الإيمان وطريق وِلاية الله.

١١) القلب (تطييب التربة)

١٢) التخلق بالقرآن

١٣) بصائر من الوحي في تزكية النفس

١٤) قواعد في شعب الإيمان

١٥) آثار الاستقامة والصلاح (وهو يتولّى الصالحين)

١٦) وسائل الثبات على الاستقامة

١٧) طالب العلم مع القرآن وهدي النبي ﷺ ﴿ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾.

١٨) جدول عملي مقترح يجمع بين التنوع والمداومة.

أولا: طالبَ العلم: خُلِقتَ للعبادة

غائيةُ عبادة الله تعالى

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾

فتلك الغايةُ، وكلُ معرفة أو علم أو بصيرة إنما تُطلَبُ لتحسين القيام بتلك الغاية، ولا قيمةَ للوسائل إلا من بقدْر أثرها في الغاية، **فهذه أول مقدمة مَن لم يفقهْها**: أضاع العمرَ في طلب الوسائل وتطويرها وفاتته الغاية.

قال حَفْصَ بْنَ حُمَيْدٍ: (دَخَلْتُ عَلَى دَاوُدَ الطَّائِيِّ، أَسْأَلُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، وَكَانَ كَرِيمًا، فَقَالَ: " أَرَأَيْتَ الْمُحَارِبَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَلْقَى الْحَرْبَ، أَلَيْسَ يَجْمَعُ آلَتَهُ، فَإِذَا أَفْنَى عُمُرَهُ فِي الآلَةِ فَمَتَى يُحَارِبُ، إِنَّ الْعِلْمَ آلَةُ الْعَمَلِ، فَإِذَا أَفْنَى عُمُرَهُ فِي جَمْعِهِ فَمَتَى يَعْمَلُ؟)).

ثانيا: طلبُ الفقه في الدين من جملة الأعمال الصالحة وأشرفِها

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، وَمَن يَسَّرَ علَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ له به طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ، وما اجْتَمع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَ يَتَدَارَسُونَهُ بيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عليهمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِنْدَهُ، وَمَن بَطَّأَ به عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ».

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾،

ودلالةُ ذلك أن يصبر المسلم على ذلك الطريق ويعلم أنه في عبادة حال طلبه فيحتسبه

وفي ذلك يصبر الشافعي طلاب العلم: (والناسُ في العلم طبقاتٌ، موقعُهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به (القرآن).

فحقٌ على طلبةِ العلم بلوغُ غايةِ جهدِهم في الاستكثارِ من علمه، والصبرُ على كل عارضٍ دون طلبه، وإخلاصُ النيةِ لله في استدراك علمه: نصا واستنباطا، والرغبةُ إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرك خيرٌ إلا بعونه، فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصا واستدلالا، ووفقه الله للقول والعمل بما علمه = فاز بالفضيلة في دينه ودنياه وانتفت عنه الرِّيَب ونوّرت في قلبه الحكمةُ واستوجب في الدين موضع الإمامة)) الشافعي.

نوَّر الشّجرُ: خرج نُوَّارُه.

ثالثا: مقاصد التماس العلم

لا يختلف العقلاء في أن طلب المعرفة غريزة بشرية ورغبة نفسية؛ لكنهم مختلفون في الدافع إلى المعرفةِ والغايةِ منها، ومن خلال الرصد التاريخي لمقاصد العلم وغايات المعرفة نراها تتذبذب بين: العلمِ لأجل متعة العقل والإشباع النفسي والثراء المعرفي المجرّد، أو العلمِ من أجل ما ينطوي عليه من مصلحة وفائدة عامة وخاصة.

لكن الذي استقر عليه المعاصرون من أرباب العلوم طبيعية والفكر والبحث هو أن العلم يُطلب لذاته أولا بقطع النظر عمّا قد يُجنى من ورائه من مصلحة ونفع، **وجعلوا للبحث العلمي وطلبِ المعرفةِ أهدافا أربعةً:**

أولا: الفهم، فهمُ حقيقةِ الظاهرةِ وتصورها

ثانيا: التفسير، البحثُ عن أسباب حدوث الظاهرة

ثالثا: التنبُّؤ، محاولة معرفة ما قد ينبني على الظاهرة

رابعا: التحكمُ أي: استغلالُ ما وقفنا عليه من فهم وتفسير وتنبّؤٍ للقيام باستغلال الظاهرة والانتفاع منها أو تخفيف آثارها أو تعديلها وغير ذلك مما يحقق منفعة لنا.

باختصار: هما هدفان:

- ✓ (علمي تصوري تفسيري)
- ✓ وآخر (عملي نفعي).

أما مقاصد العلم في الإسلام: العلم في الإسلام نوعان:

- ✓ شرعي أي مصدره الوحي والشريعة.
- ✓ وغير شرعي كالعلوم الطبيعية أو التجريبية

وكثير من آيات الوحي تدعو إلى:

- ✓ السير في الأرض.
- ✓ والنظر في الكون، وفي أحوال الأمم.
- ✓ والنظر في النفس.
- ✓ والتفكُّر في آيات الله الخلقيّة كاختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض.

وكلُّ ما ذكر من ذلك له مقاصدُ إيمانيةٌ ظاهرةٌ بيّنةٌ فالأمرُ بالسير والنظرِ والتفكرِ والاعتبارِ ليس مقصودا لذاته ولا مطلوبا لمجرد الكشف عن الظواهر ومعرفتها بل هو وسيلةٌ للعلمِ بالخالق ربِّ العالمين سبحانه ومَا له من الحياةِ والعلمِ والقدرةِ والحكمةِ والتدبيرِ والإتقانِ والإحياء والإماتة وغير ذلك مما يثمر الإيمانَ به وحمدَه وشكرَه وتعظيمَه وعبادتَه

وانظر مثلا قوله تعالى عن أهل التفكر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

وقوله تعالى في بيان انتفاع العبد المنيب بما يراه من آيات خلقية كونية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وقوله تعالى في سورة النِّعم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، وغيرُ ذلك كثيرٌ بيِّنٌ في مواضعِه.

ومما يؤكّد أن مثلَ تلك المعارفِ الكونية مطلوبةٌ كوسيلةٍ للعلمِ بخالقها ومحامدِه والإيمان به وحمده وشكره وعبادته، وليس المرادُ منها مجردَ المعرفةِ الظاهرةِ ذمُّ من حَصلتْ له تلك المعرفةُ دون آثارِها ومقتضياتها من الإيمان بالله ومحامده وشكره وعبادته ونحو ذلك، فمبلغُه من العلم مجرد المعرفة قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

ذاك هو انحصار العلم والمعرفة في العالم المشهود (العالمانيّة) دون ربطه بسببه وأصله وخالقه وغاياته.

وانظر هذا واضحا في قوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ذكر أنهم يعلمون ولا يعلمون؛ لأنهم لا يعلمون سوى ظاهرٍ من الحياة الدنيا، ومورد الذم هنا ليس في علمهم بما في الدنيا **ولكن في قوله:** ﴿وهو عن الآخرة هم غافلون﴾، **كما في قوله:** ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فمورد الذم: ﴿وتنسون أنفسكم﴾.

وفي قوله: ﴿يعلمون﴾ **بدلٌ من قوله:** ﴿لا يعلمون﴾ جعلَ العلمَ الذي لا يُجاوز الظاهرة المشاهَدة دون التفكر في الخالق وحكمته ونحو ذلك فذلك العلم المجرد هو والجهلُ سواء.

فلا هم يُفكرون في خالقه ولا في الحِكم والغايات منه وهؤلاء ظنّهم أسوأ الظن حيث كان مبلغهم من العلم عالَم الشهادة، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

فإنَّ العلمَ الكونيَ الطبيعيَ محمود من تلك الجهة أن يكون سببا للعلمِ بالله والإيمانَ به وشكره وحمده وطلب العلم بمُراده عن طريق رسله ووحيه فهو وسط بين ((سببه وغايته)) فالله تعالى هو الأولُ والآخر، هو الذي فطر فينبغي أن يكون هو نهاية قصد كل علم ومعرفة؛ بينما العلم عند العالمانيين مقصود لذاته لا يتجاوز المشهود، وبهذا الأمر يختلف العلم الكوني الطبيعي.

وفي بيان ذلك قال روجيه جارودي: (ولد في فرنسا ١٩١٣ لأم كاثوليكية وأب ملحد، اعتنق البروتستانتية وانضم إلى صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، ثم طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي سنة ١٩٧٠م وذلك لانتقاداته المستمرة للاتحاد السوفياتي ثم في يوليو ١٩٨٢ أشهر جارودي إسلامه، وسمى نفسه رجاء وله مؤلفات عديده قبل إسلامه وبعد إسلامه له مؤلفات بالعربية مثل وعود الإسلام، الإسلام دين المستقبل توفي عام ٢٠١٢م.

قال في محاضرة له بالفرنسية بعنوان: (الإسلامُ وأزمةُ الغرب، وهو وصف دقيق لمقاصد العلم الكوني في الإسلام قال رجاء ((ليس صحيحا أن العلمَ العربيَّ علمٌ بدائيٌ إذا قِيس بالعِلم المعاصر، إن العلمَ العربيَ على عكسِ مفهومنا الوضعيِ لا يَفصلُ بين العلمِ والحكمةِ، أي أنه لا يُغفلُ أبدا: المعنى والغاية. إن القرآنَ تركَ آثارًا عميقةً في الفكرِ الإنساني تجعلُ المؤمنَ يرى آياتِ اللهِ في كلِ شيء، تجعلُه يُبصرُ أمجادَ الألوهيةِ في آفاقِ الكونِ والسننِ العامّةِ التي تحكمُه، ومن ثمَّ فهو لا يَحتبسُ عند الظواهرِ الملحوظةِ، بل يرى في كلِ شيءٍ إشارةً ورمزًا يعني إلى ربّه بداهة، فآياتُ اللهِ في صحائفِ الكونِ تتلاقى مع آياتِ اللهِ في صحائفِ الوحي تلاقيا يجعلُ النظرةَ إلى الكونِ أسمى.

وهذا العقلُ المؤمنُ لا يعجزُ عنِ تحليلِ الروابطِ التي تصلُ الأشياءَ بعضَها ببعضٍ، والتي تقودُ إلى القوانينِ العلميةِ الشائعةِ في الوجود، وإنما يمتازُ العلمُ المتديّنُ بأنه يُضْفي على هذه القوانين معنى أشرف ...ثم قال: إنها قوانينُ دنيويةٌ بالنظرِ إلى العلاقاتِ التي تسودُها، بيدَ أنها دينيةٌ رفيعةُ القدرِ عندما نلحظ صلتَها بالخالق.

إنَّ الغرب نسِي الجانب الإلهيَّ في دراسته للكونِ والحياةِ فماذا كسب من مبدأ ((العلم للعلم))؟ لا شيء.

أمسى التطورُ الكمّي للعلمِ والحضارةِ الصناعيةِ هدفا مقصودا لذاته يوشكُ أن يتحول إلى بلاء على أصحابه، والخاسرُ في هذا العلم المتمرِّدِ هو الأنسانُ في كل مكان)) انتهى كلامه وهو جميل.

وعن أزمة العِلم والتقدُّم التكنولوجي الذي لم يُرشَّد بدِينٍ أو خُلُق!

ثمنُ التقنية المادية المجرَّدة

ضريبة الحداثة العالمانية

شاهدٌ من أهلِها:

قال (**جون موريس كلارك**) **أحد رجال الاقتصاد المُبرزين بأمريكا**: ((لقد خدعْنا أنفسَنا زُهاءَ مائةٍ وسبعين عاما فحسِبنا أننا بمُراعاة المصالح الخاصّةِ دونَ أيةِ مسؤوليةٍ إزاءَ الصالح العام أن نُقيم مُجتمعًا لا يعيشُ الناسُ فيه فحسب بل يعيشون فيه أيضا خلال تقدُّمهم مُكرَّمين مُنسجمين! لقد وضعْنا ثقتَنا في سُوقٍ أليةٍ تهتمُّ برواج السِّلع، وتُهمِلُ الأشخاصَ، في سياسةٍ لا تُقيمُ وَزنًا ضئيلا للأخلاق!)) ((والنظرةُ الغربية للفرد والمجتمع لا تصلح أساسا سليما لبناء صرح اجتماعي))

مع أن تلك الخديعة أقدمُ من ذلك منذ فجر تلك النهضة التي لم تصطحب الإيمانَ والأخلاق، بل هي منذ حرَّف رجالُ الدين في أوروبا دينهم ونسوا حظًّا مما ذُكِّروا به!

وقال عالِم الاجتماع البريطاني الشهير (**أنتوني غدنز**): ((إنَّ العالَمَ الذي خلقتْه الحضارة الصناعيةُ الحديثةُ لا يُمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن يكون مُرادفا لمفهوم التقدُّم!)) ذلك لأن أي علمٍ خال عن القِيَم فإنَّ ضرَّه أقربُ من نفعه، لذلك فقد كان هذا العلم الجافُّ سببا مباشرا في الانسلاخ من الدين بل: الإلحاد الصريح، فلا هم ينظرون إلى مبدئه ولا يسيرون بهديه ولا يطلبون غاياته.

وعن الأثار المُدمِّرة لهذه التقنية التي لم تراعِ خُلقا أو دِينا على البيئة والمجتمع والبشر يقول دفيد كورتن: (لقد أصبحنا سُجناءَ رؤيةٍ ضيقةٍ لطبيعة التقدم البشري ولحقائق الكون. إنّ نتائجَ هذه الرؤيةِ هي المزيدُ من الاستهلاك لمصادر الأرضِ الطبيعية عن طريق قلَّةٍ لا تملك الوَعيَ والإدراكَ للثمن الاجتماعيِ والبيئيِ الذي تدفعُه الأغلبيةُ، كما أنّ هذا الثمن يتراكمُ الأن إلى نقطةٍ حَرجةٍ قد تُهدّدُ حاجاتِ البشر على كوكب الأرض).

ولعلّ هذا عينُ ما تنبّه له آلبرت أنشتين صاحِبُ نظرية النّسبية، هو من أعظم نوابغ العلم الحديث، حيث قال:

(إن التكنولوجيا–العلمَ التطبيقي–قد خَلقَ للإنسانِ مُشكلاتٍ خطيرةً وعميقةَ، يتوقَّف بقاءُ الإنسان نفسِه على إيجاد حلٍّ مُلائمٍ لهذه المشكلات!))

وفي دراسةٍ حديثة بعنوان (خِدعةُ التكنولوجيا) تحدّث جاك ألول عن ثمن التقنية وضريبة التكنولوجيا وما يُسمّى بالوحش التكنولوجي حيث ذكر أثارا سلبية خطيرة للتكنولوجيا على رأسها (التلوُّث–والمشكلات الصحية –الإزعاج بكافة أشكاله–تدمير الزراعة من أجل التنمية الصناعية–الأرقُ والقلق والتوتر–وانتشار الأمراض العصبية وأمراض

القلب–وكثرة الانتحار–وقوع الجرائم من قتل وسرقة واغتصاب –هدم العلاقات الأسريّة والاجتماعية التراحُمية–والاعتداء على الحياة الخاصة–الحروب الجائرة. وغير ذلك.

وعن هذه المتاهة، قال: (إنّ التقدُّم التقني لا يعرف: إلى أين يسير؟!).

ولهذا طرح جان ماري ذلك التساؤل: (هل التكنولوجيا التي كانت حِلمَ الأمس، وواقعَ اليوم ستُصبح كابوسَ الغد؟! ففي مُجتمع مُفْرِطٍ في التقنية يَتِيه الإنسانُ في البحث عن جذوره!)

وقد كان صادقا دقيقا إذ أطلقَ على هذا العلم ((العلمَ الضالَ))

وبيّنَ مسؤوليةَ علماءِ الطبيعةِ أولئكَ عن ذلك الوضعِ المُتردّي، حيث قال: (إن رجالَ العلمِ بإيحائهم إلى الرأي العامِّ بأن العلمَ والتكنولوجيا بوسعها أن تحلّ جميع المشكلات، وتُفضي بالبشرية تلقائيا بل بدون إرادتها إلى غدٍ يُغنِّي طربًا! وبتواطئهم على هذا النحو عن وعْيٍ أو عن غير وعْيٍ مع السُّلُطات القائمة قد أساءوا إلى العلم إساءة لا تُغتَفَر))

• **والحقُّ:** أنّ المشكلة ليست في مجرّد العلم التجريبي فهو مما لا يُستغنَى عنه، كما هو معلوم، وبعضُه لازمٌ وضروري ونافعٌ، ولا يتعارضُ مع الدِّين بل يدلُّ الدينُ على طلب بعضها إذ هو من باب ((ما يتمُّ به الواجب)) أو ((ما لا يتمُّ الواجب إلا به)).

• **ولكنّ المشكلة** تكمُن في تأليه العلم المادي وإنكاره للغيب وللوحي ولقيمته كمصدر للمعرفة والهداية وإنكار الرسالات، وإنكار الكتب وإنكار البعث والجزاء، وتضييع أعظم غاية للخلق: عبادةَ الله! وبهذا فَقَدَ الإطار الذي يُكمّله ويُهذّبُه ويهديه ويُرشّدُه ويحميه من الضلال ويُروّضُه= فانطلقَ العلمُ كالوحش الكاسر من صحراءِ الحداثة يفتكُ ويُمزِّق ويُدمر ويُشرِّد!

ولقد صدقَ ألبرت أنيشتين حيث قال تلك العبارة الموجزةَ الرَّصينة المشهورةَ: (العلمُ بغير دين أعرجُ، والدِّينُ بغير عِلمٍ أعمى))

• وأعظمُ القولُ قولُ الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾!

وباختصار: فإن العلومَ غيرَ الشرعية كالهندسة والطب والفلك ونحوها محمودة مأجور صاحبها بشروط:

١) الشرط الأول: أن يكون نافعا لصاحبه وللناس، وقد كان النبي ﷺ يتعوذ من علم لا ينفع، ولما ذكر ما يبقى من الأجر بعد موت ابن آدم قال: «وعلمٌ يُنتفع به».

والعلوم النافعة لا تنحصر في علوم الشريعة، فكما أن العلم الشرعي قد لا يكون نافعا لصاحبه لسوء نيته أو ضعف حكمته = فإن العلم الطبيعي ونحوه يكون نافعا مأجورا صاحبُه بحُسن قصده

وقرر مجمع الفقه الإسلامي الدولي عدمَ اقتصار مفهومِ العلوم النافعة على العلوم الدينية وحسب، إنما يشمل العلوم الدنيوية النافعة وأنها واجبة على سبيل فرض الكفاية بقدر ما تحقق به نفع الأمة.

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة: "كل علم ديني مع وسائله التي تعين على إدراكه، داخل فيما يرفع الله –من علمه وعمل به، مخلصا له –عنده درجات، وأنه مقصود بالقصد الأول. وكل علم دنيوي تحتاجه الأمة، وتتوقف عليه حياتها، كالطب والزراعة والصناعة ونحوها، داخل أيضا إذا حسنت النية، وأراد به متعلمه والعامل به نفع الأمة الإسلامية ودعمها، ورفع شأنها، وإغنائها عن دول الكفر والضلال، لكن بالقصد الثاني التابع، ودرجات كل متفاوتة تبعا لمنزلة ذلك من الدين، وقوته في النفع ودفع الحاجة " انتهى.

٢) الشرط الثاني: القيام بحق العلم من الصدق والأمانة والاهتداء بالشرع وعدم مخالفته.

٣) الشرط الثالث: حُسن القصد، وهو احتسابه لله تعالى ولنفع المسلمين والناس وقوة الإسلام وكفايتهم.

وأقول: إن الأخذ بتلك العلوم وتطوير المسلمين فيها هو من الأخذ بالقوة المأمور به والله تعالى علّم سليمان منطق الطير وداوود ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ علّمه وأمرنا بشكر نعمته، وعلّم الإنسان ما لم يعلم.

ذكرت ذلك لأن كثيرا من الشباب يسألوني وهم يريدون ترك مجالاتهم التي هم ناجحون فيها والأمة تحتاجها في الطب والهندسة والزراعة وغيرها للتفرغ لطلب العلم، وأعرف كثيرا من طلاب معهد آفاق له تخصص آخر في مجالات نافعة

ونصيحتي: لا تتركْ تخصُّصَك النافع الذي تجدُ نفسك ناجحًا فيه لتتفرّغ لطلب العلم الشرعي.

جميلٌ جدا أن تُحب العلم الشرعي وتشعر بقيمته في خدمة المسلمين وتحرص عليه.

لكن: خدمةَ الدين ونصرته لا تنحصرُ في أن تكون داعيا أو طالب علم أو شيخا؛ أو نحو ذلك كما قد يتوهّمه كثيرٌ من مُحِبِّي الخير المسارعين في الخيرات ولأجله تركوا تخصّصاتهم النافعة والناجحين فيها = ليتفرّغوا لطلب العلم والدعوة!

كلُّ علم نافع، كلُّ عمل نافع، كلّ وظيفة، كلُّ تجارة يمكنك منها أن تنفع المسلمين وابتغيتَ بذلك وجه الله =فهو في سبيل الله.

لا تتحول من مهنتك ولا من كُليتك ودراستك النافعة (لتتفرغ) لطلب العلم والدعوة، فإحسانُك في عملك وإبداعك في مجالك وتفوقك وسعيُك لنفع الناس بما تستطيع فيه = هو في سبيل الله.

#والمسلمون يحتاجون بشدّة لمتخصصين ومبدعين كثيرين في كل المجالات كحاجتهم للعلماء والدّعاة

وأرى من أكبر الخطأ –في هذا السياق–والذي كان له أثر سيئ=التقليلَ من شأن المبدعين أو المتخصصين في غير العلم الشرعي.

بل حقٌّ على المجتمع وعلى (أهل العلم الشرعي) أن يُشجع ويرفع كل موهبة في أي مجال نافع، ويُقدّره، ويحُثه على الإبداع ويُشعره بقيمة ما يبذُل

لاحِظ: المقصود هو = ألا تترك عملك أو مجالك النافع لتتفرّغ (لتتفرّغ) لطلب العلم.

* اجتهد فيما تحسن، تفوّقْ في مجالك، ولكن ابتغ بتفوُّقك وجه الله ونفع الناس.

مع الحرص على: تزكية النّفس، والعبادة والنوافل (قدر الإمكان).

#**مع ذلك:**

- ✓ اجتهد أن تستغل فراغك قدر الإمكان في تعلّم القرآن
- ✓ والاطلاع على التفسير وشرح السّنة وكُتب مُيسّرة في العلوم الشرعيّة.
- ✓ لا تُقلّد أحدا في ذلك
- ✓ افعل المناسب لك من شُعب الخير.

وأقول لمن يُعلّق طلب العلم على التفرُّغ: أعرفُ نابغين متميّزين في طلب العلم والدّعوة والتدريس ليسوا مُتفرّغين بل موظفون ولهم دوامٌ ٨ ساعات يوميّة وأكثر، **لكنّهم** فقط يُحبّون طريق طلب العلم ويتقرّبون به إلى الله، ويحتسبون، ويشعرون بالمسؤولية فيدّخرون كلَّ فراغٍ مهما قلَّ للدراسة والحفظ والمدارسة،

***كما أعرف**-بل عِشتُ -مع مَن تفرّغَ تماما لطلب العلم وكُفِل كفالةً تامّة ليجعل وقته كلّه للتحصيل = فوالله ما حصّل شيئا يُذكر، وكنتُ أراهم ينامون على الأقل ١٢ ساعة يوميّا مُوزّعةً على اليوم. يقوم من النوم تعبان فيكمّل نوم، لا شعور له بالمسؤولية. ويتفنّن في إضاعة الوقت، ولو شدّ حيلو ساعة وذاكِر أو حفظ= بيريّح جنبها خمس ساعات!

عنده الأدوات شبه كاملة:

- ✓ تفرُّغ.
- ✓ شيخ.
- ✓ طلاب علم زملاء.
- ✓ مكتبات متكاملة.
- ✓ أقلام دفاتر . صحة.
- ✓ كمبيوتر. كتب.

فقط: يكوِي القميص والغُترة ويُمسك بيده كتابا ذهابًا وإيابًا، ويقترب من مجلس الشيخ، ولا بأس أن يُشارك بأي تعليق ليظهر في الصورة، وهو يُشعر مَن حوله بأنه مهتمّ شديد الحفاظ على وقته ....

ثمّ يرجع إلى أهله وقومه وقد انتظروا منه عالِما أو حتى داعيا، بعد كلّ هذا الانقطاع والتفرّغ والغُربة والنفقات.

فإذا به صِفر اليديْن... ،لم تكن القضيّة يومًا في الأدوات والإمكانات.

القضيّة باختصار: عَزمٌ وإرادة ونيّة صالحة= تفتح المغلق، وتجلبُ إعانة الله تعالى.

«ومَن بطّأ به عملُه= لم يُسرع به نسبُه».

أما عن مقاصد العلم الشرعي:

وهو المأخوذ من الوحي وهو المقصود من الفقه في الدين وهو ما أُثني فيه على طالبه ومُلتمسه طرقه والصابر عليه وأصحابه إنْ قاموا بحقه هم خير مثال للمنتفعين ببعثة النبي محمد ﷺ **فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ.**

وقال عنه الشافعي رحمه الله: ((فكلُّ ما أنزلَ في كتابه جلّ ثناؤه رحمةٌ وحجةٌ، عَلِمه من علمه، وجَهِله من جهله، لا يعلمُ من جهله، ولا يَجهل من عَلِمه، والناسُ في العلم طبقاتٌ، موقعُهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به.

فحق على طلبةِ العلم بلوغُ غايةِ جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارضٍ دون طلبه، وإخلاصُ النية لله في استدراك علمه: نصا واستنباطا، والرغبةُ إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرك خيرٌ إلا بعونه، فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصا واستدلالا، ووفقه الله للقول والعمل بما علمه = فاز بالفضيلة في دينه ودنياه وانتفت عنه الرِّيَب ونوّرت في قلبه الحكمةُ واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فنسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها المديمها علينا مع تقصيرنا في الإتيان إلى ما أوجب به من شكره بها الجاعلنا في خير أمة أُخرجت للناس= أن يرزقنا فَهما في كتابه، ثم سنة نبيه، وقولا وعملا يؤدي به عنا حقه ويوجب لنا نافلة مزيدة.

فطلب الوحي هو الفقه في الدين وطلب كل ما يعين عليه من علوم العربية والحديث والأصول والفقه والسيرة وغيرها وكل ما يعين على العلم بالحق وحججه وبيانِه والعلمِ بالباطل وحججه وكشفه والفرقانِ بينه وبين الحق فهو من علوم الشريعة، وعلومُ الفكر والفلسفة والفرق والملل محمود من هذه الجهة أيضا.

وأفضلُ العلم علمُ الشريعة

من أعظم الوصايا وأجمعها وأحسنها أسلوباً لا سيّما لمن كان رأساً ومتبوعاً ما أوصى به ابنُ تيمية صاحبه أبا القاسم المغربي الذي سأله النصيحة، فقال: (لكن جماع الخير: أن يستعين بالله سبحانه في تلقي العلم الموروث عن النبي ﷺ فإنه هو الذي يستحق أن يُسمى علما، **وما سواه:** إما أن يكون علماً فلا يكون نافعا؛ وإما ألا يكون علما –وان سُمي به، ولئن كان علما نافعا = فلا بد أن يكون في ميراث محمد ﷺ ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه.

ولتكن همتُه: فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه.

فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول = فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك.

وليجتهدْ أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصلٍ مأثور عن النبي ﷺ ، وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناسُ =فليدْعُ بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بي عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»

فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني =أهدكم ... »

وكلام أهل العلم كثير في بيان فضل علم الشريعة على غيره من حيث الأصل.

طلب العلم محمود في الإسلام، طلب العلم عبادة يحبها الله، أمر نبيه أن يطلب الزيادة منه، زيادة العلم من الله وعن مقاصده:

قال الشافعي رحمه الله: ((وأنزل عليه كتابه فقال: ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، فنقلهم من الكفر والعمى إلى الضياء والهدى، وبيَّن فيه ما أَحَلَّ: مَنًّا بالتوسعة على خلقه، وما حَرَّمَ: لما هو أعلم به من حظهم في الكفِّ عنه في الآخرة والأولى. وابتلى طاعتهم بأن تَعَبَّدَهُم بقول، وعمل وإمساك عن محارمَ حَمَاهُمُوها، وأثابهم على طاعته من الخلود في جنته، والنجاة من نقمته: ما عَظُمَت به نعمته جل ثناؤه، وأَعلَمَهُم ما أَوجب لأهل طاعته.

وَوَعَظَهُم بالأخبار عمن كان قبلهم، ممن كان أكثرَ منهم أموالا وأولادا، وأطولَ أعمارا، وأحمدَ آثارا، فاستمتعوا بخلاقهم في حياة دنياهم، فأذاقهم عند نزول قضائه مناياهم دون آماله، ونزلت بهم عقوبته عند انقضاء آجالهم، ليعتبروا في أنف الأوان، ويتفهموا بِجَلِيَّة التبيان، ويتنبهوا قبل رَين الغفلة، ويعملوا قبل انقطاع المدة حين لا يُعتِب مذنب، ولا تؤخذ فدية، و﴿تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾

فكل ما أَنزل في كتابه –جل ثناؤه– رحمة وحجة، عَلِمه من علمه، وجهله من جهله، لا يعلم من جهله، ولا يجهل من علمه...)) **الرسالة**.

فالوحي نور وتبيان وموعظة وتشريع ووعد ووعيد:

واستجابة العبد تجاهه هي العلم والعمل ((إيمان وعلم وتسليم لحكمه وتدبر وتذكر ودعوة إليه وصبر في سبيله))

✓ **فأول مقصد: البصيرة والفقه في الدين والهداية:**

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

✓ **ورفع الجهل:**

قال مهنَّا، رحمه الله: «قلت لأحمد (ت٢٤١هـ): حَدِّثنا ما أفضل الأعمال؟ قال: طلب العلم، قلت: لمن؟ قال: لمن صحَّت نيّته، قلت: وأيُّ شيء يصحِّح النيّة؟ قال ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل».

ثانيا: العمل به والاستقامة عليه: قال تعالى للنبي ﷺ وأتباعه ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

والمراد الاستقامةُ عليه ظاهرا وباطنا فيشمل ذلك أعمال القلوب من حبٍ وصدق وإخلاص لله تعالى وخشية وتوكل وخوف وغيرها من أعمال القلوب، وسلامةُ القلب من الشرك والشح والحسد والكبر، وغيره.

ويشمل الأعمال الظاهرة ومع تتضمنه من عمل القلب وأعظما ما بني عليه الإسلام من الصلاة والزكاة وصيام رمضان والحج ثم الذكر والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك ما نهى الله عنه كعقوق الوالدين والزنا والسرقة وغيرها من المحرمات، ويُستنبط هذا المقصد ورُبط بينه وبين إنزال الوحي وبيانه كثيرا.

وقال الشاطبي: ((كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غيرَ ما شُرعت له فقد ناقَض الشريعة، وكل ما ناقضها فعملُه في المناقضة باطل)) الموافقات.

ولنتأمل ذلك في مثل قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

وقوله: ((وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

للحكم به: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾.

ثالثا: الدعوة إليه:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الداعي إلى الله على بصيرة من أتباع النبي ﷺ: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾◉ ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

ومن جميل ما قال الراغبُ الأصفهانيُ رحمه الله: (كما أن الإنسانَ في مُقتنياته أربعةُ أحوال: حالُ استفادةٍ: فيكونُ مكتسِباً، وحالُ ادّخارٍ لِما اكتسبَه: فيكونُ غنياً عن المسألة، وحالُ إنفاقٍ على نفسه: فيصيرُ به منتفعاً، وحالُ إفادةٍ لغيره: فيصيرُ به سَخياً = **كذا أيضاً له في العلم أربعةُ أحوال:**

١) حالُ استفادة،

٢) وحالُ تحصيل،

٣) وحالُ استبصار،

٤) وحالُ تبصيرٍ وتعليمٍ.

ومن أصاب مَالا فانتفع به ونفع مُستحقيه كان كالشمسِ تضيءُ لغيرها وهي مضيئةٌ، وكالمسكِ الذي يُطيّبُ غيرَه وهو طيبٌ، وهذا أشرفُ المنازل)) من كتابه ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)).

وقال ابن حزم رحمه الله: ((أفضلُ ما استعملَه المرءُ في دنياه بعدَ أداءِ ما يلزمُه لله تعالى في نفسه مِن تعلُّمِ اعتقادِه مِن قولٍ وعملٍ: أن يُعلِّمَ الناسَ دينَهم الذي خُلقوا له، فيقودُهم إلى رِضَى الله عز وجل ويُخرجُهم بلطف خالقه تعالى من الظُّلمة العَمِيّة إلى النورِ الخالصِ، ومن المضيق المهلِكِ إلى السّعة الرحبة)) رسائل ابن حزم.

وربما يكون لنا محاضرة خاصة عن التشجيع على الدعوة والتعلم إن شاء الله

وفي الحديث: عن خير المنتفعين بالبعثة النبوية: فعلِم وعلّم ونفعه ما بُعثت به من الهدى والعلم

سؤال: هل يقصد العلم للرفعة والمنزلة؟:

يجب أن تعلم أن من ثمرات العلم الحق أن يرفع اللهُ تعالى صاحبه، «فإن الله يرفع بالكتاب أقواما ويضع آخرين» كما في الحديث، وقال تعالى ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي: بالآيات.

والقرآن يوجب الشرف كما في قوله تعالى ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾.

وقد أجاز بعض أهل العلم أن يكون ذلك من جملة المقاصد مع الإخلاص لله تعالى، **لكن الأكمل والله أعلم** أن يطلب لله تعالى خالصا ويُوقَن بالجزاء، لا أن يُطلب لتُرفع، وأدنى منزلة أن تطلب لله ولترفع به، كما في حديث: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه»، فمن تواضع ليُرفع فليس تواضعه لله = بل يتواضع لله ويوقن بجزائه.

وإبراهيم عليه السلام سأل الله أن يجعل له لسان صدق؛ فقد سأل ذلك ليكون متبوعا مُصدَّقا عند الناس، وقيل في الآية غيرُ ذلك، وفي دعاء المؤمنين ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾ ليس المراد منها طلب الرئاسة والعلو.

فطلب الإمامة في الدين لا يطلب لذاته، وطلبه للشهادات والمال والوظائف وغير ذلك إذا كان مع الإخلاص فهو جائز.

ويكون ذلك من جملة المقاصد أن يُقتدى بك في الهدى والخير؛ **لكن** أن تكون الرفعة والرئاسة الدافعَ وحده فهو ليس لله بل يدخل في حديث: «ورجل تعلّم العلم وقرأ القرآن. تعلّمت ليقال هو عالم هو قارئ وقد قيل ... ».

وهو من إرادة الدنيا وزينتها.

العنصر الرابع من محاضرة اليوم وهي المحاضرة الأولى في السلسلة:

رابعا: الاستقامة مكون رئيس عند أئمة العلم

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ *وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ آثار العلم.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

قال النبي ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً».

عنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ».

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ*وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

عن ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَنزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بنِ قَيسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ ﷺ وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ ﷺ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أخيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيهِ، فاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ. فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: هِيْ يَا ابنَ الخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أميرَ المُؤْمِنينَ، إنَّ الله

تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، واللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى. رواه البخاري.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وسيكون لنا وقفات مع معنى الرّباني:

وقفات مع قول الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وله محاضرة خاصة إن شاء الله.